

❖ من حرية الاتصال إلى تحرر الفطرة

د. شافية صديق

أستاذة محاضرة في كلية أصول الدين

-جامعة الجزائر-

في عصر تشتت فيه الفكر وانسحب التأمل وانتصرت الهرولة نحو عوالم الوهم والتخدير والانفصام: تتأوه كلمات ابن عباس رضي الله عنه من عالم الصفاء: "إن تفكر ساعة خير من قيام ليلة".

وفي عصر تجلس العجوز الأمية أمام جهاز التلفزيون ملتقطة برنامجا يابانيا يتناول أحدث الابتكارات في عالم تكنولوجيا الجزئيات الإلكترونية المتناهية في الصغر ويجلس المراهق الساعات الطويلة مستسلما لمشاهدة بؤس النظر وفحش المتابعة وتختلط الصور بالألوان والأحجام معلنة سيادة الفوضى والارتباك لبقى العقلاء عاجزين أمام التهديم المنتظم لكل ما يصنع توازن الأمة وكرامتها.

الانغلاق مستحيل والاستسلام كبيرة من كبائر الإثم تتسارع معه الخطى نحو الهاوية التي لا قيام بعدها.

في هذه الأجواء يصدع صوت ابن حزم الأندلسي رافضا الاستسلام للغزو مستفيدا من معرفة الأسس التي تقوم عليها حضارة الآخر: "لقد انتفعت بمحك أهل الجهل منفعة عظيمة وهي أن توقد طبعي واحترم"⁽¹⁾.

أصبح مصدر الثروة الجديد هو معلومات ومعرفة تطبق على العمل لخلق القيمة: معرفة تفاصيل عمل الجينات للتحكم في هندسة البشر، معرفة تركيبة المخ البشري وآليات عمله للاستفادة منها في تطوير الذكاء الاصطناعي، معرفة كيف يفكر



من حرية الاتصال إلى تحرر الفطرة

الناس إزاء قضايا معينة للتحكم في مصائرهم تراكم معلومات دقيقة ومعالجة بطريقة تسمح باستغلالها إلى أقصى درجة ممكنة والحرب بين الدول الكبرى حول المعلومات أكبر وأدق وأخطر من أن يسمح للصغيرة من الشعوب بمعرفة تفاصيلها المبهلة.

وعندما يضطر باحث إلى معرفة خبايا مجتمعه عن طريق مراكز خارجية يمكن الحديث دون تردد عن السيادة الفكرية على المستقبل بعد أن ضاع الحاضر وشوه الماضي.

ولترسيخ سيطرة الأقوياء من الناحية الفكرية بعد أن أصبحت واقعا من الناحية العملية جاءت مفاهيم عديدة ظاهرها الخوف على حرية الإنسان وانطلاقه وباطنها توسيع الفجوة بين من يملك ويسيطر ومن يستهلك ويخضع.

الدفاع عن "الحريات" موجود على الضفتين: ضفة الناجين من الاضمحلال وضفة السابحين في محيط أوهام المغلوبين ولا يفيد هنا التغني بأفول الحضارة الغربية لأن الواقع أصدق من الأماني، وقد نبه بعض الباحثين إلى أن الدفاع عن نفس الشعارات لا يعني أبدا الإيمان بنفس التصورات، يقول "روبرت اسكاربيت": "إن الباحثين والكتاب لا يقولون نفس الشيء وهم يتفاعلون مع مشكلات متوازية وأحيانا متطابقة ولكن بأشكال تابعة لاختياراتهم المعرفية وبمستويات متباينة يعني في غالب الأحيان انطلاقا من إيديولوجيات مختلفة⁽²⁾.

فحرية الاتصال أو الحق في الاتصال مفهوم يتسع لتأويلات وشروح كثيرة، ففي الدول الليبرالية أدى تقديس هذا الحق إلى بروز تمرکز ملكية وسائل الاتصال في



د. شافية صديق

مجموعات ضيقة وجهت الرأي العام في قضايا كثيرة لما يخدم مصالحها على حساب مصالح المجتمع.

يقوم مديرو أجهزة الاتصال في أمريكا بوضع أسس عملية تداول: "الصور والمعلومات" ويشرفون على معالجاتها وتنقيحها وإحكام السيطرة عليها، تلك المعلومات والصور التي تحدد معتقداتنا ومواقفنا بل وتحدد سلوكنا في النهاية⁽³⁾.

ويصف الباحث هؤلاء المديرين بسائسي العقول القائمين على عملية العبقرية المرعبة التي وصل بها الأمر إلى إقناع الشعب بالتصويت ضد أكثر مصالحه أهمية⁽⁴⁾، ولفهم إجمالي وشامل للتحدي الكبير الذي تواجهه إنسانية الإنسان أمام آلة الاتصال حتى على المستقبل ينبه هربرت شيللر إلى ظاهرتين:

أ- ظهور المجمعات الإعلامية الاتصالية العملاقة التي تمتاز بأنها متكاملة الأنشطة وتربطها صلات وثيقة ببنية مؤسساتية عسكرية ضخمة جدا تشكل تهديدا جديدا للمجتمع الأمريكي فهذه القلة المتحكممة من المجمعات الإعلامية التعليمية يخول لها في الوقت الحاضر الحق في صياغة ثقافة الأمة طبقا لتصوراتها الخاصة ضيقة الأفق عن الكفاءة والمهارة وفي نفس الوقت تمنع هذه المؤسسات الخاصة الكبرى أكثر فأكثر في إخفاء الأساليب الداخلية لعملها⁽⁵⁾.

ب- العلم اندمج أكثر من أي نشاط ذهني آخر في اقتصاد المؤسسات العملاقة متعددة الشركات وسوق المعرفة تشهد توسعا هائلا ومعظم الخبرة المطلوبة لاستغلال هذه السوق تملكها بالتأكيد الصناعة الخاصة والمؤسسة العسكرية وتم



من حرية الاتصال إلى تحرير الفطرة

بالفعل استبعاد كل الجهات المختصة في التعليم المدرسي التي كان بمقدورها أن تقدم للتعليم بدائل لأسلوب التجمع (التجاري التعليمي) من عملية صنع القرار⁽⁶⁾.

إن التقنية الغربية مسخرة لخدمة رغبة السيطرة والاستغلال والعلم وجه إلى نفس الغرض مما جعل فيلسوفا مثل هايدجر يعترف بانقلاب التقنية على الإنسان.

إن حرية الاتصال أو الحق في الاتصال في مجتمع لم تنضج فيه أبجديات التعايش المتحضر يؤدي سوء الفهم لها إلى تشوهات خطيرة لهذا الحق الأساسي والإنساني كالروايات الضحلة فنيا التي ينشد أصحابها الانتشار من خلال خدش القيم وسب الدين فقد لاحظ مثلا وزير الثقافة المصري وبعض المبدعين أن بعض المبدعين الفاشلين يكتبون نصوصا تفتقد لأدنى أسس العمل الإبداعي ويحشون تلك النصوص بأفحش العبارات وانجس الجمل ثم يتصلون هم أنفسهم بمصالح الرقابة لينبهوا المعنيين بالرقابة بأن هناك "روايات" بها فصول تخترق القواعد العامة للآداب فتمنع تلك الكتب التي لم يكن قد بيع منها أكثر من عشرين نسخة في أحسن الأحوال لتقوم بعد ذلك بعض وسائل الإعلام بالدفاع عن حق الاتصال وحق الإبداع وبتهافت الناس على شراء هذه النصوص.

ويتعرض الكاتب لاستنكار الغيورين على أخلاق المجتمع ويصبح الكاتب في نظر من يريد أن تشيع الفاحشة بطلا وتترجم كتبه إلى اللغات الأجنبية التي تنظر إلى المجتمعات المتخلفة نظرة ازدراء تساعد على ترجمة هذه الفواحش لتأكيد ذلك ويكون من حق الكاتب بعد ذلك طلب اللجوء السياسي في بلد أوروبي⁽⁷⁾.



د. شافية صديق

وبما أن المفاهيم ترتبط بالظروف والبيئة التي تنشأ فيها فإن مفهوم حرية الاتصال أو الحق في الاتصال، هو مفهوم ذو تركيبة غريبة في اللغة العربية وترجمته غير مريحة نظرا لكون تعريف الحقوق يخضع للنسق الفكري والديني ولا توجد تعريفات تقفز عن الخلفية الفكرية وحتى كلمة اتصال تشوبها كثيرا من ظلال الغموض.

لقد برز مفهوم الحق في الاتصال في الحضارة الغربية عام 1969 وكان جان دارسي JEAN J'ARCY رئيس المعهد الدولي للاتصال أول من رسم بعض خطوطه الكبرى عندما دعا إلى حق أوسع نطاقا من الحق في الإعلام وهو الحق في الاتصال ويشمل أربع مستويات:

- أ- الحق في أن يسمع (بفتح الياء)
- ب- الحق في أن يسمع (بضم الياء)
- ج- الحق في أن يعلم (بفتح الياء)
- د- الحق في أن يعلم (بضم الياء)⁽⁸⁾.

الملاحظ جيدا التركيز على حركة الأفكار والآراء دون محتواها فهل من حق الإنسان أن يسمع غيره ما يمس كرامته وقيمه⁽⁹⁾.

إن الاختلاف في تحديد المفهوم وأبعاده دليل يؤكد نسبية هذه المفاهيم وارتباطها العضوي بالبيئة الفكرية التي نشأ فيها وبالخلفية التي ينطلق منها الباحث فديسموند فيشر (أستاذ علوم الاتصال) مثلا يرى أن حق الاتصال هو حق أساسي للإنسان يتفرع عنه عدد من الحقوق والحريات هي:

– الحق في الإعلام.



من حرية الاتصال إلى تحرر الفطرة

- حرية التعبير.

- حرية الرأي.

وغيرها⁽¹⁰⁾.

الملاحظ مرة أخرى أن مضمون ما يتم إعلامه وتداوله والتعبير عنه لا يستدعي انتباه الباحثين وهو ما يلمس أيضا في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان من خلال مادته 19 التي لا تجيب بما فيه الكفاية عن سؤال: ما هو الهدف من هذا الحق؟.

وقد حاول تقرير اليونسكو لعام 1975 الاستفادة من تجارب الواقع واسقاطات هذا النوع من الحقوق على العالم الثالث ليلاحظ القائمون على التقرير أن الحق في الاتصال معقد لأنه ينطوي على مشكلات تختلف في شكلها وجوهرها وتختلف في تأويلها من مجتمع إلى آخر وتنطبق على مختلف المستويات والتنظيمات الاجتماعية. وانطلاقا من هذه التعقيدات حددت ثلاثة أبعاد أو مستويات يجب التوقف عندها:

أ- الفرد: اتجاه حقوق الإنسان.

ب- الجماعة: الاتصالات في إطار اجتماعي.

ج- الأمة: الاتصالات في إطار عالمي بين الأمم⁽¹¹⁾.

ويستنتج المصمودي أن بروز وانتشار وسائل جديدة للإعلام والاتصال وتنامي الوعي بدور الإعلام في تطور المجتمع ومناعته والشعور الأعمق بأهمية العالم الثالث



د. شافية صديق

سياسيا واجتماعيا وضرورة التكافل لمواجهة المشكلات البشرية وتدعيم نزعة التعددية السياسية من بين أهم الخلفيات التي أعطت للتقرير طابعه العام.

في الفكر الإسلامي يمكن البحث في أبسط معنى لمفهوم الاتصال أو التواصل من خلال الكلمة الرمز: الصلاة والتي تعني الدعاء ودون الدخول في متاهات التعريفات المعجمية وتفرعاتها يلاحظ أن أكثر الطرق اختزالا لقلب المفاهيم لا يمكن أن يخرج عن النسق الفكري العام.

لقد كان الرسول ﷺ يقول: "وقرة عيني في الصلاة" (12).

لكن أبعاد هذه الصلة تتجاوز اللحظة التي يقف فيها الإنسان بين يدي الله بل واللحظة التي يتلو فيها الأدعية المتواترة يقول الشيخ الغزالي رحمه الله: "ليست العلاقة بالله ساعة مناجاة في الصباح أو المساء ينطلق المرء بعدها في أرجاء الدنيا يفعل ما يريد كلا هذا تدين مغشوش، الدين الحق أن يراقب المرء ربه حيثما كان وأن يقيد مسالكة بأوامره ونواهيه وأن يشعر بضعفه البشري فيستعين بربه في كل ما يعتريه، وقد كانت سيرة الرسول نسقا واضحا في عمق الصلة بالله وشمولها فما يمكن أن يغفل عن الله في فعل أو ترك" (13).

وقد تناول الكثير من الباحثين فلسفة الدعاء في الإسلام بعيدا عن الجمل المتراصة الجافة ومن بين هؤلاء عالم الاجتماع علي شريعتي الذي لاحظ أن الدعاء الإسلامي: عماده أشياء ثلاثة.

أ- مخاطبة الله: خطاب يصلح لأن يكون أقوى دلالة على وجود الله، فيه ذكر صفات الله ومنزلته وروابطه ورباطة الإنسان بالفعل.



من حرية الاتصال إلى تحرر الفطرة

ب- الإرادة: ليس إرادة الحاجات المادية بل هي إرادة الخصال المحمودة.

ج- الفكر الديني: الذي يحويه الدعاء الإسلامي ينطوي من أوله إلى آخره على الحديث في الله وفي الإنسان وفي الأخلاق وفي الاجتماع وهذا نوع من الإرادة وليس مطالبة أحد بشيء فحسب⁽¹⁴⁾.

و"علي شريعتي" ينطلق في تحليله هذا من مفهوم واسع للعبادة حيث يراها من منظور نفسي اجتماعي المقصود منها الاتصال الوجودي المستمر بين الإنسان والله⁽¹⁵⁾.

والدعاء في الإسلام حسب علي شريعتي هو أيضا ثورة على الخمول والاستكانة والتخلف ودعوة قوية للعمل والإقدام والاجتهاد فالدعاء أيضا:

أ- الدعاء لا يحول الضعف قوة ولكنه يزيد القوة قوة ويمنح الخير بقاء وديمومة في بناء الحياة الفردية والاجتماعية فالدعاء الإسلامي يأتي بعد أداء الواجب وبعد أداء العناء والعمل والكفاح والصبر.

ب- إذا كانت العبرة تؤخذ من المدرسة النبوية العملية فالمؤكد أن الصحابة لم يكونوا منزوين أو مترهبين ولائذين بالجمال، لم يكونوا هاربين من المجتمع ومن مساهمة الناس في أقراحهم وأفراحهم إلى دير أو صومعة ليمارسوا الدعاء والدعاء وحده.

ج- الدعاء ليس وسيلة إلى تلبية الحاجة فحسب بل هو المحبة تتجلى فما لا يدرك بالمنطق والعلم يدرك بالمحبة بمحبة المحب للمحبوب ومتى خلا القلب إلا من المحبة كانت المحبة صافية خالصة صادقة⁽¹⁶⁾.



د. شافية صديق

إذا كانت الصلاة في الإسلام هي الصلة والاتصال بالله وهي عماد الدين ومفهومها يتعدى الصلوات المفروضة إلى صلاة القلب والجوارح في كل لحظة يقضيها الإنسان مبتلي في هذا العالم فإن مفهوم الاتصال في الفكر الغربي انطلق أساساً من موقف من تسلط وجبروت الكنيسة التي كانت تحجر على القلوب والعقول فإن الدين الإسلامي يجعل من الكلمة والحركة جهاداً يومياً من أجل العدالة والحق، كلمة الحق لدى سلطان جائر وإمالة الأذى عن الطريق كتواصل عملي مع المجتمع والعالم.

فممارسة الحياة كلها تعبير عن العلاقة التواصلية للإنسان بمعبوده سواء كان الله الحق أو الهوى وكما يقول الفلاسفة.

التعبير هو نقل الشيء من صورة معقولة "داخل العقل" إلى صورة محسوسة خارج النفس مطابقة له والتعبير لا يكون فقط بالكلام بل هو كل الآثار الخارجية الكاشفة عن بعض الأحوال الداخلية.

ولتتبع ما سيأتي من تحليل لا بد من التنبيه إلى ملاحظات أساسية أهمها:

أ- إن أي بحث تقني في الموضوع سيقع في فخ سهولة النسق الفكري الغربي الذي انفلت من سلم للقيم يحترم فطرة الإنسان وشوقه الدائم لحرية هذه الفطرة خصوصاً وأن العالم اليوم ليس قرية صغيرة ولكن فوضى كبيرة تعبت بمصائر الأمم الضعيفة والعقول المستسلمة، فالانترنت مثلاً صنم جديد يعبد لا تتعدى نسبة المادة المفيدة فيه 10% و80% مثلاً من مستعمليه في الولايات المتحدة الأمريكية يقتصرون على خدمات البريد الإلكتروني كما لوحظ تشجيعه لثقافة الاستهلاك (الشراء



من حرية الاتصال إلى تحرر الفطرة

عن طريق الكمبيوتر وثقافة العث دون أن يدفع هذا إلى اليأس من هذه الأداة لأن العبرة في الأداة هي الاستخدام العام وليس في الاستخدام الخاص⁽¹⁷⁾.

ب- العملية الإتصالية هي أكثر الظواهر الاجتماعية التصاقاً بالحياة الاجتماعية للإنسان⁽¹⁸⁾، وهي في الأساس انتقال الأفكار من مرسل إلى مستقبل عبر واسطة تسهل عملية التفاهم بين الطرفين.

الإنسان يستطيع أن يفكر مع نفسه (الاتصال الذاتي) كيفما يشاء وفيما يشاء ولكن بمجرد أن يريد إيصال هذه الأفكار إلى غيره (اتصال شخصي أو اتصال جماعي)، يصبح الأمر بحاجة إلى ضبط، فالفكرة عندما تصبح مشاعة بحاجة إلى تنظيم فكل ما هو مشاع يحتاج إلى ضوابط تنظمه.

كما أن الإسلام أسقط المسؤولية على الإنسان عندما تراوده أفكار غريبة عن روح الإسلام معول على محض الإيمان بمحوها: "إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم يتكلموا ويعملوا به"، الفكرة هي موقف لأنها صادرة عن كائن يتأمل ويختار ومرسل الفكرة كمستقبلها يتواصلان بأفكار هي في الأصل اختياراتهم ورؤاهم، ولأن أهم ما يشغل الكائن العاقل هي وجوده ومآله وكيف يحقق كيانه فالدين يبقى الخلفية الأساسية والقاعدية لأي موقف أي لأية فكرة.

لذلك لاحظ الدارسون أن أهم حرية فكرية شهدتها التاريخ هي حرية التدين أي الحق في الالتزام بفكر مستقل إزاء المسألة الدينية.



د. شافية صديق

كما نبه بعض علماء الاجتماع أن دراسة الدين هي أهم مدخل لدراسة المجتمعات: "دراسة الدين تعني العمل مع معظم مجالات الاهتمامات الحديثة لتحليل المجتمع والثقافة"⁽¹⁹⁾.

من نفس المنطلق تم الربط بين المسيحية ونشأة المطبعة، حيث واكب اختراع المطبعة ظهور الحركات الإصلاحية في المسيحية خاصة البروتستانتية التي شجعت نسبيا على الاستقلال في الفكر وإبداء الرأي حيث استخدمت المطبعة لنشر الآراء الجديدة المناهضة للكنيسة الكاثوليكية وترجمة الإنجيل إلى اللغات الشعبية⁽²⁰⁾.

ج- الملاحظة الأساسية الثالثة: هي أن بعض مجتشي المفاهيم من التربة التي نشأت فيها يريدون إيهام الغافلين أن حرية الاتصال وحرية الفكر وحرية التعبير هي بنات الفكر الغربي المتحرر نهائيا من الدين، ولكن المدقق في التاريخ يرى أنه رغم كون الكنيسة كتبت على الحريات وقمعت المفكرين؛ إلا أن الحضارة الغربية لم تتحرر من الدين المسيحي، كما حرفة الغرب لأن الفكر الغربي أضفى على تلك التحريفات تهافته وهروبه من الحق الحقيقي لذلك يلاحظ المتأمل في أسس الفكر الغربي المعاصر انسجاما بين مركبات تبدو ظاهريا متنافرة.

- الحضارة اليونانية-اللاتينية.

- النصرانية.

- الإقطاع.

- فلاسفة القرن الثامن عشر⁽²¹⁾.



من حرية الاتصال إلى تحرر الفطرة

بينما يرى "فرانسيس بال" المتخصص في قانون الإعلام أن النظرية الليبرالية في الاقتصاد والفكر قامت على فلسفة ديكارت ولوك وستوارت ميل⁽²²⁾.

معلوم أن فلسفة ديكارت (1596-1650) لم تتبرأ من المسيحية والنزعة التشكيكية لرائد العقلانية لم تطل المؤسسة الدينية كالكتب وممارسات الكنيسة (هذا ما فعله سبينوزا لاحقاً) بل إن أهم نصيحة كان يقدمها ديكارت في مؤلفاته هي الالتزام بدين المجتمع دون النظر في خطأه أو صوابه.

وجون لوك (1632-1704) الذي شغل منصب محافظ التجارة مع المستعمرات ورائد التسامح الديني يرى أنه لا يجب أن يتمتع به المسلمون والملحدون والكاثوليك، وقد حاول "جون لوك" جاهداً إيجاد منطق في الكتب المقدسة.

وجون ستوارت ميل (1806-1873) تأرجح بين النفعية والمصلحة العامة والحرية ولكنه تحدث أيضاً عن قابلية بعض الشعوب للاستعمار في إطار التقسيم العالمي للعمل⁽²³⁾.

أزمة التشريعات الإنسانية أو عندما يقصى الوحي من الحياة:

يشهد المجتمع الدولي المعاصر الكثير من الإعلانات والمواثيق والشعارات التي تهتف بالحريات لكل الناس والحقوق لكل الفئات، فخلال الخمسين سنة الماضية ظهرت 44 وثيقة ما بين معاهدة (12) وإعلانات (14) ولوائح (8) تنظم مجال حقوق الإنسان ومن بينها حرية الاتصال، ورغم كل ذلك لم يتحقق العدل ولم تنل الشعوب حقها من الكرامة الإنسانية ولم يتساوى الأفراد داخل المجتمع الواحد.



د. شافية صديق

ويمكن البحث عن أسباب هذا النفاق وهذا التهافت في زاوية كثيرا ما أهملتها الدراسات الغربية التي سعت إلى تأليه العقل البشري في ثورة على سيطرة الفكر الكنسي الذي تأرجح بين "اعتقد ولا تنتقد" و"أو من بهذا لأنه غير معقول" وتفسيرات أخرى حاولت أحكام الخناق على عقول وقلوب الناس.

ومن صور الثورة على عصر الظلام في القرون الوسطى التفات العقل الأوروبي إلى العصر الوثني اليوناني بتمجيده والبحث فيه عن أصول لنهضة بدأت بالثورة على انحراف الكنيسة وضرورة إصلاحها ليصل البعض بها إلى الثورة على الله واعتباره قد مات وفق صيرورة الفكر الأوروبي المتمركز حول ذاته.

وعلى سبيل المثال نبه "طبلية محمد طبلية" إلى زاوية هامة تفيد كثيرا في القراءة النقدية الخالية من الانفعالات المتسرفة لبعض الأصنام المعبودة في عصرنا كالديمقراطية: "إن الإيمان الراسخ بتعدد الآلهة هو السبب في التناقض الذي لا تخلو منه بعض النظم التي تبدو ديمقراطية لأول وهلة ولكنها عند إمعان النظر تنكشف عن عدم اكتراث بفكرة وحدة القانون وحتى تلك الديمقراطية التي يكثر القول في تمجيدها وهي الديمقراطية الإغريقية قد فشلت في تحقيق وحدة القانون لأنها اعترفت بوجود قوانين مختلفة لطبقات مختلفة من المواطنين، فالتمييز بين الرقيق والحر هو إنكار لنظرية القانون على الجميع ومن البديهي أنه لا ديمقراطية دون "أمن" وقد كان الأثينيون إلا ما ندر لا يجدون إلا الرعب إزاء الأشباح؛ أشباح الآلهة وسلطان الدولة وباسم هذه الأشباح وباسم الخرافة أعدم "سقراط" أحد أباء الفلسفة الإغريقية بل العالمية" (24).



من حرية الاتصال إلى تحرير الفطرة

التزلزل المستمر وعدم التوازن الذي تعيش فيهما الدول الغربية لا يعودان فقط إلى هذه الأشباح التي مازالت تطارد العقل الأوروبي في صور متطورة تستفيد من آخر الابتكارات التكنولوجية وإنما يرجعان أيضا إلى عدم الارتكاز إلى ثوابت من مصدر معصوم مما تسمح للإنسان بالاجتهاد في المتغيرات دون الوقوع في التناقض الذي يقلب سلم القيم وموازن الحياة ويفقد الأفراد والمجتمع الاستقرار الضروري لكدهم فوق هذه الأرض.

التشريعات الإنسانية الصادرة عن المجامع الديمقراطية ليست ثابتة ولا تحمل في نصوصها صفة الإباحة المطلقة أو المنع المطلق وخصوصا فيما يتعلق بالحقوق والواجبات الفردية والمسؤولية الشخصية، وما ذلك إلا لأنها مبنية على المصلحة والحاجة المتطورة ومن المعلوم أن المصلحة تتبدلان وتتحولان حسب الظروف والأحوال ومن غير المستغرب في تاريخ التشريعات الإنسانية أن يناقض آخرها أولها في بعض تفاصيلها وأن ينقلب المكروه إلى مستحب والمحظور إلى مباح والمستهجن إلى عادي" (25).

إن الاتصال في الغرب ينطبع بهذه الخصائص العامة التي تبعد الوحي المعصوم وتتيه في تقديس عقل بشري مهما بلغت عبقريته يبقى ضئيل الطاقة عاجز عن اقتحام عوالم كثيرة يحتاج فيها إلى التسليم بقوة خالق عادل قوي ورغم هذه الحقيقة التي تنطلق من الفطرة إلا أن الكثير من المفكرين الغربيين يرفضون الواقع الفكري اليوم دون الوصول إلى صلب المعضلة ومن هؤلاء "هربرت ماركوز" الذي يقول: إن الاتصال في الدول الغربية هو الطبقة الخارجية للعالم ذي البعد الواحد أين يضطر الإنسان إلى دخول عالم النسيان وقوانين حرية التعبير وحرية التفكير، لا تمنع العقل من التكيف



د. شافية صديق

مع الوضع السائد والحقيقة أن هناك إعادة تعريف الفكر، وظيفته، محتواه، وهذا التحليل الفلسفي يفرضه الواقع هذا الواقع الذي يدفع أيضا إلى ضرورة التفكير التجريدي فبقدر ما نبتعد عن مجال الملموس الاجتماعي، نستطيع أن نتأمل ونحلل جيدا وبوضوح ونبني إلى أي حد المجتمع استبعد التفكير⁽²⁶⁾.

وفي نفس السياق السابق تعد شهادة بنيوي من زعماء العدمية ذات أثر خاص لأنها تسلط الضوء على أثار كل ذلك الزخم الفكري الذي آله العقل وأبعد من اعتباره كل الأسس الضرورية لحياة متوازنة ترتبط وجودها بفطرة سليمة يقول: TZEVE TAN TADOROV⁽²⁷⁾ أنه مع مجيء الديمقراطية والثورة الصناعية والتغير الحديث للعالم، انتشرت النزعة الفردية وغابت الهويات الجماعية الكبيرة وراح كل فرد يختار لنفسه ما هو صالح وما هو غير صالح وليس هناك إجماع على الحقيقة المشتركة والقيم المشتركة، وغياب الدين أدى إلى:

- انهيار مبدأ الجماعة
 - وانتشار الديمقراطية
 - وتضخم النزعة الفردية
- وهذه العناصر بدورها أدت إلى العدمية

وإذا كان "تودوروف" لم يتحرر من قيود فلسفة مفلسة لأنه عاجز عن إيجاد بديل فإن "كارل ياسبرز" رغم اتجاهه الفكري الوجودي إلا أنه يفتح أفقا بلون خاص تتجمع فيه بعض خيوط الأزمة الروحية الغربية التي تنكرت للخالق المعصوم وحاولت أن تنكر لنداء الفطرة في الإنسان والذي يحن إلى تواصل قوي مع الخالق من أجل التمكن من التواصل المتوازن مع سائر مكونات الوجود.



من حرية الاتصال إلى تحرر الفطرة

يقول كارل ياسبرز: "إن تجرد الإنسان من كل إيمان ليس انفتاحا بل خواء وفراغا والاستعداد للاتصال معناه إمكانية إيجاد في نظرة غريبة عن الإنسان تجليا لله لم يكن يراه، الإيديولوجيات الحديثة المعاصرة تحاول الحلول محل الدين والاستيلاء على عقول الناس وأرواحهم بوسائل أبعد ما تكون عن الاتصال الحقيقي القائم على الحب والكرامة والإنسانية والحرية الروحية⁽²⁸⁾.

جزء من الفكر الغربي أراد أن يبنى مجده على أنقاض الدين المسيحي بالتشكك له أو اتهامه بكل الصفات النقيضة للحرية والانطلاق إلا أن المسيحية بالجزء المعصوم فيها كما الجزء المحرف شكلت رافدا أساسيا للفكر الغربي في شعور المفكرين أو في لا شعورهم، بتمسكهم بالفضائل التي أرادها الله ﷻ في خليفته على الأرض أو بالردائل التي ألصقها بالدين عقل لم يعترف بحدود طاقته وراح يعبث بأمور لا طاقة له بها.

يقول الكاتب الإنجليزي ذو الأصل الأمريكي صاحب جائزة نوبل في 1948 آليوت (تومس ستيرنس): في المسيحية نمت فنوننا وفي المسيحية تأصلت إلى عهد قريب قوانين أوروبا وليس لتفكيرنا كله معنى أو دلالة خارج الدين المسيحي وقد لا يؤمن فرد أوروبي بأن العقيدة المسيحية صحيحة ولكن كل ما يقوله ويفعله ويأتيه من تراثه في الثقافة المسيحية ويعتمد في معناه على تلك الثقافة ما كان يمكن أن تخرج "فولتير" و"نيشه" إلا ثقافة مسيحية وما أظن أن ثقافة أوروبا يمكن أن تبقى حية إذا اختفى الإيمان المسيحي اختفاء تاما ولا يرجع اقتناعي بذلك إلى كوني مسيحيا



د. شافية صديق

فحسب بل إني مقتنع به أيضا بوصفي دارسا لعلم الأحياء الاجتماعية فإذا ذهبت المسيحية ستذهب كل ثقافتنا⁽²⁹⁾.

الحرية: تعريف وأبعاد

تطرح دائما إشكاليات عميقة لتقديم تعريفات حول كلمات مطاطة يشكّلها المفكرون وفق منظور اتهم واللجوء إلى التعريف الإجرائي حل عملي لا ينهي الجدل: دلالات اللفظ الواحد في اللغة الواحدة قد تختلف باختلاف التركيب كما تختلف باختلاف الزمان والمكان حتى لقد تنقطع الصلة بين الدلالة الحالية للفظ والدلالة التي كانت له في زمن مضى وقد يقتصر الأمر على مجرد تطور في المضمون فيتسع ويضيق أو يحمل مفاهيم جديدة تختلف قليلا أو كثيرا عن مفاهيمه القديمة، فألفاظ "حقوق" و "حريات" و "ديمقراطية" إلى آخره من مصطلحات دستورية وسياسية تختلف معانيها ومضامينها من مكان إلى مكان ومن زمان إلى زمان ومن شريعة إلى أخرى⁽³⁰⁾.

والاعتراف بالعجز عن إيجاد دلالة للفظ تتجاوز الحدود الجغرافية والثقافية عبرت عنه أيضا منظمة اليونسكو في تقريرها الذي أرادته لما شمل المجتمعات المتباينة السياسات والثقافات.

"إن كلمة الحرية شأنها شأن كلمات أخرى مثل "الديمقراطية" و "الاشتراكية" و "السلام" يتم تفسيرها بطرق مختلفة يبدو أنه من الصعب تحديد الحرية عامة أو حتى حرية التعبير"⁽³¹⁾.



من حرية الاتصال إلى تحرير الفطرة

ورغم نسبية كل تعريف للحرية وعدم الإجماع عليه إلا أن هذا اللفظ أصبح هو الأساس والجوهر لكل تشريع أو تنظيم أيا كانت منطلقاته وكيفما كانت أهدافه إن هذا على الصعيد العام وإن على الصعيد الخاص ومن كل هذه الحثيات نفهم سر القول بضرورة التلازم بين الحرية الفردية والحرية السياسية، فالأولى هي الغاية والثانية هي وسيلة حمايتها⁽³²⁾.

البون شاسع في الواقع بين أن تزين الدساتير بشعارات ومبادئ الحرية والواقع الذي يؤكد أن تمتع فئة قليلة بهذه الحريات يرجع بالأساس لغياب الوازع الذي يجعل مصلحة الجماعة تتغلب على مصلحة الفرد عند الموازنة لذلك نبه بادوفر (صول.ك) إلى أن التعريف الحقيقي للحرية يجب أن تكون للإنسان الخيرة في أن يفعل ما يريد بشرط عدم الإضرار بالآخرين⁽³³⁾.

إشكالية مصدر الحقوق والحريات وتقسيمها:

يرتبط تقسيم الحريات والحقوق بالمصدر الذي يراه أصحاب التقسيم لها ورغم كل الجهود للتواضع على تقسيم موحد إلا أنها باءت كلها بالفشل لان العصمة شرط في إعطاء الثقة كاملة وشاملة.

دائرة المعارف البريطانية أشهر تقسيم للحرية هو تقسيمها إلى حرية مدنية وحرية سياسية ومضمون الحرية أخذ يتسع ويمتد إلى الضمانات والفرص الاقتصادية في أعقاب الحرب العالمية الأولى بسبب كفاح الطبقة العاملة والحركة الاشتراكية والحرية بالمفهوم الحديث تشمل الحقوق الفردية والضمانات الاجتماعية ونظرا لهذا الاتساع، كان لابد من إجراء عملي في تحديد أبعاد الحرية وهو هذا التقسيم الذي لم يتفق



د. شافية صديق

عليه أيضا أي أنه ليس هناك إجماعا على تحديد أقسام الحريات وأنواعها وإن كانت هناك بعض التقسيمات التي تحاول الجمع بين اتجاهات مختلفة⁽³⁴⁾.

تقسيم هوريو للحريات والحقوق، حيث يرى أن الحريات تنقسم إلى مجموعتين:

- حريات الحياة المدنية.

- حريات الحياة السياسية.

1- حريات الحياة المدنية:

وتنقسم الحريات المدنية إلى فئتين:

الفئة الأولى: وهي الحريات الطبيعية في التنقل والحريات العائلية كالزواج، الهبة، الوصية، التبني.

هذه الفئة من الحريات الأولية ذات الأسبقية من وجهة نظر تاريخية فعلية تتعلق بقدرة كل فرد على تحديد مصيره الذاتي في النطاق العائلي والمهني، إنها الحريات الضرورية لرجل يتمنى النجاح في حياته على الصعيد المادي ولكنه يهتم قليلا بتجاوز هذا المستوى سواء في مجال المضاربة الفكرية أو في حقل التأثير على الأقران.

الفئة الثانية: تدخل ضمنها حرية المعتقد والعبادة، وحرية التعليم، وحرية الصحافة وغيرها.



❖ من حرية الاتصال إلى تحرير الفطرة

ويعرف هوريو حرية المعتقد بأنها القدرة على الاختيار بدون إكراه بين مختلف الآراء والمعتقدات ومختلف الأديان لكن معاملة الدول الغربية لهذا المبدأ لا يكتسي طابعا موحدًا.

2- حريات الحياة السياسية.

أما مجموعة حريات الحياة العائلية فتشمل الحقوق المدنية والسياسية وتنقسم إلى فئتين:

الفئة الأولى: الحقوق المدنية وهي التي تسمح بالمشاركة في الوظيفة العامة بالمعنى الواسع.

الفئة الثانية: الحقوق السياسية والتي تسمح بالمشاركة في التعبير عن السيادة الوطنية وتتضمن فكرة الحرية الفردية وفكرة الحرية السياسية⁽³⁵⁾.

يلاحظ أن تقسيم هوريو لا يمس قلب وأساس هذه الحقوق وهو اجتهاد شكلي وفي الروح الغربية فعبارات مثل "حقوق طبيعية" ناقصة ومبتورة، فمن يعطي هذه الحقوق أو كيف يأخذها الإنسان وكيف يتم تحديدها؟

فمعلوم مثلاً أن الأمور العائلية أمور حساسة وفي النزاعات المتعلقة بهذا المجال تتداخل العواطف والمصالح والاعتماد في حلها على اجتهاد الأفراد لا يمكنه إرساء قواعد ثابتة تساعد الكيان الاجتماعي على الاستقرار ومثال ذلك في الغرب أن من حق الإنسان الغني أن يهب كل ثروته لكلب؟



حق تمتع الأفراد بالحقوق:

هل يكفي أن تنص الدساتير وإعلانات الحقوق ومواثيق ممضاة من الحكومات والدول على حقوق حتى يتمتع بها الأفراد دون تمييز فعلي على أرض الواقع، فإذا نصت الدساتير على حق الإنسان في التعبير عن آرائه من خلال وسائل الإعلام، فهل يمكن لمواطن بسيط الوصول إلى وسائل الإعلام التي تسيطر عليها قلة متمكنة ماديا.

لقد لوحظ على أرض الواقع أن هذه المبادئ العامة تنطلق من أن الفرد هو الذي يختار ويحقق العوامل والشروط للتمتع بهذه الحريات ولا شك أن نقد الماركسية لهذه النقطة تؤيده التجارب الواقعية إذ أن الإمكانيات الكبيرة التي تتطلبها تجسيدات هذه الحقوق ستؤدي حتما إلى أن تتمتع بها فئة قليلة فقط (ظاهرة الاحتكار والتمركز) خصوصا وأن المفهوم الكلاسيكي للحقوق الفردية يقتضي عدم تدخل الدولة حتى فيما سيصبح لا حقا من الحقوق التي تضمنها الدول الليبرالية والتي هي أصلا منافية لمفاهيمها الكلاسيكية كضرورة ضمان الدولة لحق التعليم وحق الثقافة وحق العمل والتأمينات الاجتماعية وغيرها وهو ما يفترض تدخل الدولة بقوة في نظام تقوم فلسفته الأولى على أبعاد الدولة عن شؤون الأفراد.

هذه التناقضات لم تجد حلها عند الماركسية أيضا التي أدت إلى إلغاء الفرد بعد أن حاولت الليبرالية في فلسفتها الأولى إلغاء الدولة وبين التطرفين عاشت المجتمعات الغربية بشقيها الرأسمالي والشيوعي أزمة الإنسان.



الفكر وحرية التفكير:

جعل الله الخالق في الإنسان نعمة تميزه عن سائر المخلوقات وهي نعمة الفكر والتعامل مع هذه النعمة مثل التعامل مع سائر النعم ينطلق من اختيارات الإنسان الأولى أي إجابته عن وجوده ووظيفته في هذه الدنيا، ولا شك أن العبيثية التي وصل إليها الفكر الغربي فيما سمي بفكر الحداثة وما بعد الحداثة دليل على أن طريق الفطرة واحد وإن أي حياد عنه يعني السقوط في هاوية يتجرد فيها الإنسان من حرّيته وكرامته، وأي تفكير لا يتحرر من روح استعلاء مغرور لا شك في سقوطه.

التفكير كتعريف موجود في أكثر من قاموس عام ومتخصص وفي لغات كثيرة وهو تقريبا بنفس المعنى العام: إعمال الفكر في أمر بتحليله لمعرفة أسبابه أو لتقدير عواقبه قبل الحكم عليه أو القيام بفعله، وهو أيضا حركة الإدراك العقلي المقابل للإدراك الحسي وللحدس.

وحرية التفكير: حسب ما تقدم هي حرية أساسية من حيث كونها حاجة بشرية ملحة وهي من الناحية القانونية هي حرية الرأي LA LIBERTE DE PRESSE OU D'OPINION وتعني إمكانية الفرد التعبير عن آرائه أو تفكيره حول أية مشكلة كانت سياسية أو دينية وذلك بالوسيلة التي تناسبه بالحديث PAROLE، المطبوعات PRESSE، بالعرض SPECTACLE أو عن طريق الموجات ONDES ويختلف التقييم لهذه الوسائل الإعلامية ما بين نظام سياسي وآخر غير أنها تظل مقيدة على العموم بحجة المحافظة على أمن الدولة ثم النظام والأخلاق العامة حيث أن دائرتها تضيق أو تتسع تبعا لضيق أو توسع درجة التزام كل نظام⁽³⁶⁾.



د. شافية صديق

التعريف التقني والسياسي لا يمكن اجتثاثه من ملابسات التاريخ والواقع لأن التعريف عادة ما يكون لأسباب إجرائية فحسب، لذلك يحرص على تكثيفه وتركيزه وحرية التفكير ارتبطت منذ نشأتها أو منذ ظهورها كتعبير واعي في الفكر الغربي كثمرة جهاد في سبيل الحرية الدينية باعتبار أن الخيار ما بين الأديان والخيار ما بين الإيمان وعدمه يتبعه تلقائيا الخيار بالتفكير أو التعبير عن الرأي أما في المجتمعات الحديثة وعلى الأخص الغربية منها فإن الحرية الفكرية تشغل المقام الأول في سلم الحريات العامة حيث أن طيات دساتيرها قد أكدتها وأحاطتها بهالة من القدسية⁽³⁷⁾.

الحجر على القلوب والعقول لا بد أن يكبل كل الطاقات الكامنة في الإنسان ويحوّله إلى كائن مجرد من الكرامة التي تصنعها أساسا الحرية، ولتحقيق الحرية بجميع أبعادها لا بد أن ينطلق الإنسان من أساس متين يسمح له بالارتكاز المطمئن، وعندما يكتشف الإنسان الطاقات الكامنة تلك سيدرك أنه لم يخلق عبثا وأنه مؤهل لمهمة أسمى من المرور العابر بالحياة، وكل هذه التساؤلات هي فحوى الدين، فالتفكير يكون حرا أو لا يكون.

والتفكير والحرية هما الإنسانية المسؤولة التي لا تكتمل إلا في علاقتها بمصدرها وليس حقيقي كل ذلك الإبهار الكاذب بكون حرية الغرب هي حرية مطلقة "رغم قدسية حرية التفكير والتعبير في الحضارة الغربية إلا أنها وضعت حدود أمام الذي يريد التمتع بهذا الحق والسماح لأي فرد أن يفكر ويعلن أفكاره ويدعو إليها كما يشاء على أن لا يمس فكرة الحرية والأسس التي تركز عليها بالذات ولهذا تسعى



من حرية الاتصال إلى تحرير الفطرة

المجتمعات الديمقراطية إلى مناوئة الأفكار الفاشية والنازية والتحديد من حريتها والقضاء عليها⁽³⁸⁾.

حرية التفكير وحرية الإعلام والاتصال:

حرية التفكير مرتبطة بحرية التعبير بل هي مرادفتها والتعبير عن الأفكار للآخرين يعني التواصل معهم وإعلامهم بهذه الأفكار.

التداخل بين هذه المفاهيم لا يمكن حسن استثماره إلا بالانطلاق من الخلفية التي تنطلق منها ملاسبات هذه التعريفات والتي تلونها وتوجهها، يلاحظ فرناندو تيرو بأن مفهوم الإعلام ارتبط بالحاجة الملحة للتعبير عن حرية الرأي كنتيجة لحرية التفكير والمطالبة بها بالبحاح إزاء الاضطهاد والرقابة الممارسين من قبل السلطات الدينية والمدنية⁽³⁹⁾.

وأبسط تعريف للإعلام بنفس الاتجاه هو كل نشر تحت أي شكل مكيف لعناصر المعرفة (أحداث) أو تقييم (تعليقات وآراء) عن طريق الكلام أو الصوت وبصفة عامة كل الرموز والإشارات التي هي في متناول الجمهور ويمكن أن يكون الإعلام موجها لجمهور واسع أو جمهور ضيق⁽⁴⁰⁾.

هناك تداخل كبير بين تعريف التعبير والتفكير والإعلام وإن كان الإعلام في الأدبيات العامة يرتبط بوسائل تقنية تتطور باستمرار ولكنه تطور لا تتمتع به جميع الشعوب ولا جميع الفئات في المجتمع الواحد فأضحت تلك الوسائل وسيلة للسيطرة والقوة كالاختراعات التي أنجزها الإنسان غيرت الكثير من وسائل السيطرة على العالم وعلى ما يحيط بها ولكن الإنسان ذاته لم يتغير بتاتا⁽⁴¹⁾.



د. شافية صديق

لذلك البحوث الخاصة بالاتصال والإعلام واسعة جدا لأننا لا ندرس فقط وسائل الاتصال بل ندرس أيضا عمليات الاتصال وهذا ما يجعلنا نهتم بعلوم إنسانية أخرى كثيرة فالصحافة والإعلام يشارك تلك العلوم مسؤولية كشف المشاكل الواسعة التي تتضمنها عمليات الاتصال⁽⁴²⁾.

يلاحظ تداخل وغموض في استخدامات المفاهيم التي تنتمي إلى مجال العلوم الإنسانية وذلك أمر طبيعي لخصوصية هذه العلوم النسبية وفي علوم الإعلام والاتصال مازال الجدل قائما على حدود المفهومين والعلاقة بينهما ويكتفي هنا بمثال له علاقة بالمنحنى العام للدراسة وهو لـ"روبرت اسكاربت" حيث يرى أن الاتصال عملية معقدة متشابكة تعمل وتنشط عبر مجموعة من الأدوات لا تمثل وسائل الاتصال إلا جانبها التكنولوجي.

والإعلام: هو القيمة الرياضية أولا لمضمون الرسائل التي تنقلها وسائل الاتصال هذه والمجال المشترك بينهما من خلال تطبيق عملي هو أنه في عالم يعيش فائضا إعلاميا Surinformé كما هو حال المجتمع الغربي يمكن أن يكون مصابا بنقص فادح وخطير في نظامه الإتصالي، يكفي مثلا أن لا تسمح الأدوات بالتعبير عن رد الفعل أو بحرية مبادرة المتلقى، الإعلام يمكن أن ينقل في اتجاه واحد ولكن الاتصال يكون دائما ثنائيا أو متعدد⁽⁴³⁾.

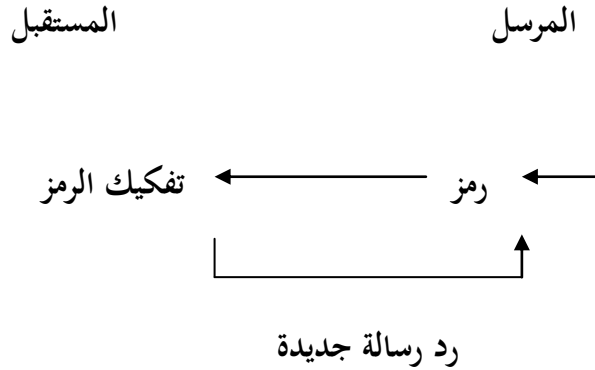
يلاحظ الارتباط الواضح بين أبعاد التعريف وظروف المجتمع وأنه من الصعب إيجاد تعريف يتعالى عن هذه الظروف وتبقى بذلك العمليات الإعلامية بوصفها عمليات إنسانية، تعكس مضمونا يحدده النمط البنائي وطبيعة القوة المسيطرة في



من حرية الاتصال إلى تحرر الفطرة

المجتمع من جانب ومبلغ تطور الفن الإنتاجي الذي تعكسه الوسيلة الفنية القادرة على التأثير بدورها في وسط محدد من جانب آخر⁽⁴⁴⁾.

وكل الدراسات المنجزة حول الإعلام والاتصال ما هي إلا صورة اصطناعية جامدة⁽⁴⁵⁾، للعمليات الإعلامية والاتصالية كما هي في الواقع الحي بل هي تشويها إلى حد ما لأن الكثير من المتغيرات لا بد أن تؤخذ كأبعاد أساسية كثيرا ما لا يتحكم فيها الدارسون لعمقها وتشعبها وما صورة عناصر العمليات الإعلامية والاتصالية إلا وسيلة للتبسيط.



وللتنبيه إلى أن قيمة الإعلام وقيمة الاتصال مرتبطان بإرادة الإنسان ووعيه واختياراته يلاحظ أن الإعلام هو ذلك الجوهر الذي يحوي الاتصال والذي يستخلصه القارئ أو المستمع أو المشاهد والذي استطاع الصحفي في أن يوصله إلى الجمهور المعني، الجوهر الذي يحويه الاتصال يمكن تسميته الإعلام الكامن أو الفعال POTENTIEL INFORMATION وهناك سلسلة من الحواجز غالبا ما تعوق هذه العملية والقسم من الإعلام الكامن الذي يفهم بشكل فعلي هو الإعلام



د. شافية صديق

الحقيقي REAL INFORMATION ويمكن تحديد إعلامية الاتصال عبر المعادلة التالية:

1 إعلام حقيقي

$$- \times - = 1$$

100 إعلام كامل

إذا كان الجديد والمهم للقارئ هو عشرة أسطر من مادة ما تحتوي على 100 سطر فإن إعلامية هذه المادة تشكل 10% وذات المادة ستختلف درجة إعلاميتها باختلاف الناس، إن درجة الإعلامية قد تتذبذب بين 100% و 0%⁽⁴⁶⁾.

الإنسان مهما كان ضحية هجوم إعلامي أو غزو إتصالي يبقى سيد نفسه وهو الذي يحدد ما الذي يأخذه وما الذي يرفضه، ما الذي يعيره المصادقية وما الذي يعتبره غبارا مارا ومهما حاول "المهاجمون" أحكام السيطرة على الضحايا فيبقى المتلقي جدارا يرفض هذه الهجومات إذا كان قويا ومحصنا جيدا أو يتحول إلى وادي تتجمع فيه عناصر متنافرة تلوث صفاءه وتكدر انسيابه.

الاتصال: من المفاهيم التي دخلت الأدبيات المدافعة عن حقوق الإنسان وخصوصا الحقوق الفكرية كما أنه مفهوم تتجاذبه الأيديولوجيات والمذاهب لما يسمح به من "تلاعب" بقيمة إنسانية تهفو إليها النفس الحرة.



من حرية الاتصال إلى تحرير الفطرة

ورغم ذلك لوحظ عدم وجود تعريف مقبول بشكل عام لاصطلاح الاتصال حتى الآن يعتبر أمرا يبعث على الدهشة فمعنى اصطلاح "الاتصال" واضح وغامض في نفس الوقت⁽⁴⁷⁾.

وبزاد الأمر تعقيدا عند الحديث عن الترجمة إلى اللغات البعيدة عن لغة الاصطلاح مفهوم الاتصال أستعير في اللغة الفرنسية من الأمريكان منذ عام 1950 فقد كانت عبارة MASS-COMMUNICATION تترجم إلى COMMUNICATION DE MASSE الاتصال الجماهيري وعبارة MEDI OF MOYENS DE COMMUNICATION إلى MASS-COMMUNICATION وسائل الاتصال ثم استخدم بطريقة غريبة عبارة MASS-Média للتعبير عن الوسائل ومنذ عشرية "الكتاب مؤلف في الطبعة الأولى عام 1962 أصبحت كلمة MEDIA وجمعها MEDIAS فرضت وجودها للتعبير عن وسائل الإعلام⁽⁴⁸⁾.

الاختلاف في مفهوم المصطلح لا يتعلق باللغة فقط ولكن أيضا بالزمان حيث المعنى القديم للاتصال كان الوصول والبلوغ أما معناه العصري فهو مأخوذ من الإنجليزية والفرنسية وهما لغتان تستعملان لفظا واحدا للدلالة عليه وهي كلمة COMMUNICATION ويجب أن نشير إلى أن هذه الكلمات باللغات الأجنبية تؤدي معاني كثيرة يعبر عنها باللغة العربية بكلمات مختلفة منها: المواصلات والبلوغ والاتصال وقد استعملها علماء النفس والاجتماع بكثرة وأثروا معناها ونوعوها تنوعا⁽⁴⁹⁾.



د. شافية صديق

ولمحاولة إحصاء بعض الاستخدامات لكلمة اتصال يمكن تحديد محاور عامة أهمها:

- نقل الأفكار والمعلومات والاتجاهات من فرد لآخر.
- الخطوط والمواصلات: أي قنوات تربط مكان بآخر أو تقدم بنقل سلع وأفراد.
- عند المهندسين: تعني كلمة الاتصال باستمرار التلفون -التلغراف- الراديو.
- عند الأطباء: معنى الحديث عن الأمراض المعدية.
- عند علماء الاجتماع: لوصف عملية التفاعل الإنساني باعتبار المجتمعات أيضا عبارة عن نظم اتصال⁽⁵⁰⁾.

ومن الناحية التقنية تعني كلمة الاتصال في المفرد الصلة للإشارة إلى "عملية" الاتصال التي يتم عن طريقها نقل المعنى وفي الجمع تعني الإشارة إلى الرسائل نفسها أو مؤسسات الاتصال⁽⁵¹⁾.

وعندما ترتبط الكلمة بالجماهير فتعني حشد ومجموعة كبيرة من الناس تأتي من جميع مجالات الحياة ومن مختلف الطبقات الاجتماعية والأفراد داخل هذه المجموعة يختلفون في مراكزهم وثقافتهم وثرواتهم وكل فرد هو مجهول الهوية ولا يتفاعل مع الآخرين فالأفراد هنا منفصلين عن بعضهم ماديا ولا يستطيعون أن يعملوا كوحدة بشكل فعال⁽⁵²⁾.

الجانب النفسي هام جدا في الحديث عن العلاقات الاتصالية في إطار المجتمع المحلي أو في إطار المجتمع الدولي وذلك لكون مفهوم الاتصال عمليا هو



من حرية الاتصال إلى تحرر الفطرة

عبارة عن عملية إرسال أو استقبال رموز أو رسائل سواء كانت هذه الرموز شفوية أو كتابية، لفظية أو لا لفظية، ويعتبر الاتصال أساس التفاعل الاجتماعي الذي يؤدي إلى نشوء علاقات متنوعة ومتعددة في مختلف المواقف سواء كان ذلك بين شخصين أو أكثر⁽⁵³⁾.

وهو أيضا عملية تتم بين طرفين يتخاطبان ويستطيعان عن طريق الاتصال بينهما أن يتشاركا في فكرة أو رأي أو شعور أو عمل ما ويمكن أن يكون كل طرف من الطرفين شخصا واحدا والآخر عدة أشخاص فيكون الاتصال عن طريق التخاطب بين شخص ومجموعة (حال المدرس والتلاميذ) أو حال زعيم سياسي يخطب في جماهير وأحيانا يكون التخاطب بين مؤسسة وشخص أو عدة أشخاص وبشكل غير مباشر كحال المذيعين الذين يتوجهون إلى مستمعيهم⁽⁵⁴⁾.

وأهمية هذا التبادل والتفاعل تكمن في حاجة الإنسان الماسة لإشراك الآخرين في أفكاره ومعرفة كيف يفكرون لتحقيق التوازن الضروري لحياة سوية الاتصال هو العملية التي تنقل بمقتضاها معنى بين الأفراد والاتصال أساسي هام، أساسي لأن المجتمع الإنساني البدائي والحديث يقوم على قدرة الإنسان على نقل نواياه ورغباته ومشاعره ومعلوماته وخبراته من فرد إلى فرد والاتصال هام لأن المقدرة على الاتصال بالآخرين تزيد من فرص الفرد في البقاء، في حين أن عدم القدرة على الاتصال تعتبر نقصا مرضيا خطيرا في التفكير والمشاعر⁽⁵⁵⁾.

ورغم شبه الإجماع على بعض وظائف الاتصال إلا أن الدراسة المعمقة تقتضي الحذر من التسليم المسبق بصور بعض الإجماعات، إن وظائف الاتصال هي في



الأساس وظائف نسبية وترتبط بالحاجات المتنوعة للمجتمعات والبلدان المختلفة (56).

كما يرتبط الاتصال بتنظيم قانوني وسياسي بنظام الدولة فهناك دائما تلازما بين التنظيم الاتصالي والتنظيم السياسي للدولة، فلكل دولة نظامها الاتصالي ولكل نظام اتصال شكل دولته، فالعلاقة بين الاتصال وشكل الدولة علاقة تسمح بالتأكيد على حيوية الدراسة المعمقة لأشكال الاتصال في المجتمع.

يرى الباحثون في القانون الدستوري ونظرائهم في علوم الاتصال أنه حينما تم الربط لدى الفلاسفة الإغريق بين الديمقراطية وحجم المدينة أي بعدد الناس الذين يستطيعون أن يسمعوا صوت خطيب واحد كانوا يظهرون الحدود التي تفرضها أساليب الاتصال على تطور النظم السياسية فاندماج أي وحدة اجتماعية يتوقف على المقدرة على نقل الأفكار ونقل الأوامر الإدارية ومنع تفكك وانعزال المناطق البعيدة عن المركز فقد أدى ظهور المطبعة إلى تطور الحركات الفكرية في المجتمعات الأوروبية وظهور حركات الإصلاح الديني وعصر الثورات التي تسعى إلى تحقيق الديمقراطية⁽⁵⁷⁾.

وفي تحليل ذات العلاقة في العصور الحديثة يوجه "أندريه هوريو" التحليل إلى تطور وسائل الاتصال الذي يؤثر في تطور شكل النظام السياسي مع الأخذ بعين الاعتبار الخلفية الفكرية التي ينطلق منها القائمون على التغيير والتطور لأن التغيير في الأصل فكرة يحملها المقتنعون بها ويسعون لتجسيدها.



من حرية الاتصال إلى تحرر الفطرة

ارتقاء "نظام الدولة" يتوافق عموماً مع خطاب كان انتشار الأفكار فيها ميسوراً بفضل التقدم التقني فقد سبق للمدينة القديمة أن نشأت في منطقة البحر المتوسط بعد اختراع الكتابة التي أتاحت بتحرير الذاكرة مواجهة الأفكار بسهولة أكبر كما أن الدولة الأمة الحديثة لم تنشأ في أوروبا عقب "القرون الوسطى" إلا بعد اختراع المطبعة التي هي نوع من الرديف للكتابة لأنها بالواقع ساهمت في تجسيد الحوار وتعميقه بين السلطة والحرية ولهذا فإن في الأنظمة الغربية يشكل التوأمين "حكم-معارضة" بذات الوقت توأماً: "السلطة-الحرية"⁽⁵⁸⁾.

عندما تطورت وسائل الإعلام وأصبحت رهانا حقيقيا لبسط النفوذ حرصت كل الأنظمة بمختلف اتجاهاتها المختلفة المتباينة على السيطرة عليها وذلك لأن الإعلام هو أكثر من مجرد نقل الخبر، كل خبر يحمل بالضرورة معنى ينطلق من حالة معينة إلى حالة يسعى إليها.

من الخطأ التسليم لشعارات كالموضوعية التي ترفعها مؤسسات إعلامية تريد إيهام المتلقين أن لا موقف منحاز لديها لأن الموضوعية في الإعلام لا تعني الحياد فالقائم بالإعلام باعتباره شاهد مهني عن الأحداث لا يكفي بتسجيل وجهات النظر المتناقضة وإعطائها نفس الثقل والأهمية فالصحفي يحدد ما إذا كان سينشر الخبر أو لا مع كل المخاطر المترتبة عن القرار الذي يتخذه وفي الإعلام ليست هناك لغة بريئة عند اختيار هذه الكلمة بدلا من الأخرى فإن هذا الاختيار يحمل تعليق عن الخبر وفي نفس الوقت يخفي تعليقا آخر كان ممكنا أن يكون هو المختار إن ما لا يعبر عنه يكون أحيانا أهم مما هو معبر عنه، إن الصياغة الصحفية هي جزء هام في العمل الصحفي بل هو جزء رئيسي⁽⁵⁹⁾.



د. شافية صديق

لا حرية، لا موضوعية، لا حياد بصفة الإطلاق لأن الحرية هي موقف واعى من الوجود أساسا والموضوعية هي تجريد الإنسان مما يصنع تفرد أي إنسانيته والحياد هو في حقيقة الأمر مسخ لإنسانية الإنسان المبنية في الأساس على حرية الاختيار.

ولعل هذا ما دفع بعض الباحثين إلى التأكيد على أن التحليلات الفكرية للمواضيع الكبرى للإنسانية لا تتأثر بالمدى الواسع الذي يصله نجاح تطوير الوسائل التقنية، التكنولوجيا هي العلوم التقنية ليست دراسات مجردة أو عشوائية في طبائع المواد والكائنات وإنما هي دراسات وعلوم تنبعث من غايات وتصورات ذاتية للإنسان وتسعى لتحقيق تلك التصورات والغايات⁽⁶⁰⁾.

ويقول صاحب مقولة "الوسيلة هي الرسالة" إذا كان هناك شيء لا تستطيع التكنولوجيات فعله هو بالتأكد أن تضاف إلى كينونتنا⁽⁶¹⁾، كما أن الانبهار ببريق خدمات الاختراعات الجديدة لا يعمي إلا البصائر الغافلة لأن محتوى هذه الاختراعات هو الإنسان مستهدفا (بكسر الداء) وهدف الاختراعات التي أنجزها الإنسان غيرت الكثير وسائل السيطرة على العالم وعلى ما يحيط بها ولكن الإنسان ذاته لم يتغير بتاتا⁽⁶²⁾.

حرية الاتصال:

للحديث عن حرية الاتصال لابد من الانطلاق من حقيقة أساسية تسمح بتتبع أي تحليل خاص بوجه من وجوه عالم الاتصال: قانونيا أو سييسولوجيا أو نفسيا أو غيرها.

فتاريخ الاتصال الإنساني عبارة عن خليط أو مركب من أنظمة الاتصال وليس ببساطة مجرد انتقال من نظام لآخر، فإن أحد المبادئ الهامة التي يتعين فهمها هو أن طبيعة



من حرية الاتصال إلى تحرر الفطرة

عمليات الاتصال في مجتمع ما ترتبط تماما ويحق بكل وجه من أوجه الحياة اليومية للناس في المجتمع⁽⁶³⁾.

ولأن الحقوق والحريات من الوجهة القانونية هي نتاج نضج المجتمع في لحظة ما من تاريخه فإن تعريفها يرتبط بالمستوى العام لذلك المجتمع والاتجاه العام لاختياراته الأساسية. حق الاتصال يعرف مثلا لدى قانوني مختص في وسائل الإعلام والاتصال بكونه مجموع القواعد الممكن تطبيقها للنشاطات التي يكون هدفها السماح للناس بالاتصال بعضهم ببعض عن طريق التعبير عن أفكارهم مهما كان الشكل أو هدف هذا التعبير وعن طريق أية وسيلة كانت⁽⁶⁴⁾.

هل فعلا الناس يعبرون عن أفكارهم، هل الأفكار التي تراود الإنسان تجد دائما الآذان الصاغية عند سامع واع، وهل من العقل أن يحدث المرء بكل ما يعلمه؟.

البحث عن حرية مطلقة وانطلاقة من غير قيود لا تحكمها إلا الرغبة في تحقيق الذات عناصر تشكل خلفية أي تعريف ينطلق من فلسفة وجودية عبثية وهذا ما يمكن تتبعه في شرح الباحث السابق لتعريفه.

حرية الاتصال هي الحق لكل واحد أن يستعمل بحرية الوسائل التي يختارها للتعبير عن فكره بإيصاله للآخرين أو للوصول إلى تعبير عن رأي الآخرين مهما كان في الحالتين شكل وغاية هذا التعبير⁽⁶⁵⁾.

لائكية الحق في الاتصال والإعلام:



د. شافية صديق

يحاول بعض الباحثين البحث عن عمق لهذا المفهوم في عمق أزمة الكنيسة في الفكر الغربي وهو بحث مفيد من زاوية الكشف عما يدفع أبناء هذا الفكر إلى عبادة هذه المواقف الصنمية والتي تجرد الإنسان من كل ديناميكيته الروحية المستمدة من صريح فطرته.

يقول "روبرت اسكاربت" إن ذلك الحق مرتبط بالأداة المستعملة فالأداة المكتوبة لا تملك لائكية الأداة السمعية البصرية LAOS باليونانية معناها العامة وذلك مرتبط باحتكار الكنيسة للمعرفة لأن منظومة البصمات والآثار والأدلة (المكتوب) بقيت لمدة طويلة سرا يحتفظ به رجال الكنيسة أي أولئك الذين تقع على عاتقهم واجبات حماية التراث الثقافي بعدم تعريضه (هذا التراث) للضغط من تساؤلات مشروعة تفرضها المعاشية اليومية للواقع والتي تدفع دفعا إلى استنطاق التراث أي تعريضه للتقييم والنقد الضمنيين.

ومع اختراع الطباعة وصعود البورجوازية حاولت هذه الأخيرة استعمال هذه الأداة لصالحها ولتفعيل هذه الأداة كان لا بد من "لائكية" علمنة ونشر وتعميم القراءة والكتابة يعني إشراك العامة فيها لأن العامة مطلوب منهم المشاركة في عملية الإنتاج لصالح ثراء البورجوازية والتعلم يتطور بسرعة أكثر عندما تصاحبه عملية التصنيع لأن الصناعة وتطورها تحتاج إلى عمال مهرة وتطوير الصناعة لهذه الحاجة كسرت احتكار العلم المكتوب ومع ذلك يبقى الاتصال المكتوب ذا اتجاه نخوي بينما الاتصال السمعي البصري اتجاه لائكي عام⁽⁶⁶⁾.

ارتباط حرية الاتصال بحريات أخرى:



من حرية الاتصال إلى تحرر الفطرة

ترتبط حرية الاتصال بحريات أخرى كحرية المعتقد وحرية الفكر والحرية السياسية والحرية الاقتصادية فمثلا لا يمكن تحقيق حرية الاتصال بدون حرية سياسية نظرا للسلطة والتأثير التي يتمتع بهما الاتصال ولا يمكن أيضا تحقيق حرية الاتصال بدون الحرية الاقتصادية نظرا للطابع الاقتصادي للمؤسسة الاتصالية.

اجتهد الباحثون في تبيان ما هي الحريات التي تتقاطع أكثر مع حرية الاتصال واختلفوا في ذلك ولكنهم اتفقوا على وجود تقاطع مهما كانت درجته.

يرى "بال" أن حرية الاتصال ما هي إلا جزء من حرية التعبير إذا فهمنا من حرية التعبير القدرة على إخراج فكرة بتشكيلها بأية طريقة كانت وأن هذه الفكرة تكون رأيا أو اعتقادا أو قناعة فحرية الاتصال تجعلها حالة خاصة وفي تحليل أعمق يمكن التسليم بأن حرية التعبير تملك إمكانات كامنة في نفس المستوى لمبدأ الحرية الدينية وحرية التعليم وحريات النشاط والتعبير الجماعيين مثل حرية إنشاء الجمعيات وحرية الاجتماع وحرية المظاهرة، فحرية الاتصال تمثل إذن ذلك الجزء من حرية التعبير الذي يعني ممارستها استخدام تقنية توزيع أو اتصال تقنية وسائط الاتصال⁽⁶⁷⁾.

باعتبار السياسة هي تنظيم علاقة الحاكم بالمحكوم أساسا والحاكم يبحث عن الأسلوب الذي يستطيع به التحكم أحسن في محكوميه وتشتد العلاقة بين السياسة والاتصال أو تتراخى بمقدار ابتعاد أو اقتراب النظام السياسي من تقدير حريات الأفراد.

الحرية السياسية تقدم اليوم-أحيانا كثيرة- على أنها أساس المجتمع المتوازن وذلك بإغفال حقيقة أساسية هي أنها لا يمكن أن تؤدي إلى هذا التوازن ما لم تكن محمية



د. شافية صديق

بالحريات الفردية، حرية المعتقد وحرية الصحافة وحرية الاجتماع والتعاقد والتعليم وهذه الحقوق وما يسير في اتجاهها هي اعمق من الرغبة في الاشتراك في الحكم.

الارتباط بين هذه الحريات لا يمنع من التأكيد بأنه منذ اختراع جوتنبرغ أصبحت وسائل الإعلام (الاتصال) المكان والرهان لكل حريات الفكر مؤسسات الصحافة والراديو والتلفزة هي انعكاس للأنظمة السياسية في نفس الوقت التي تتشكل فيه كعنصر أساسي وما يسمى السلطة الرابعة يتجاوز في الحقيقة قوة السلطات الثلاثة⁽⁶⁸⁾.

الضمانات:

الشعارات الجميلة لحماية حرية الإنسان في الاتصال باعتبارها حاجة أساسية لا يمكن التنازل عنها دون فقدان وهج الحياة بل والحياة نفسها بمفهومها العميق.

إن القول بحرية الاتصال هو القول بحرية التعبير لأن الاتصال هو التواصل والتعبير بالأفكار والحيلولة دون تمتع الإنسان بحقه في هذا المبدأ ينم عن رغبة في قتله ككائن مستقل واع قادر حر.

إن القول بحرية التعبير في بلد ما لا يضمن وجودها في الممارسة كما أن الوجود المتزامن للحريات الأخرى (حرية تكوين الجمعيات وحرية الاجتماع والتظاهر وحرية التظلم وحرية الانضمام إلى النقابات)، هي كلها مكونات أساسية لحق الإنسان في الاتصال وتؤدي أي عقبة تقام في وجه هذه الحريات إلى القضاء على حرية التعبير⁽⁶⁹⁾.



❁ من حرية الاتصال إلى تحرر الفطرة

إن ينص الدستور على حق من حقوق لا يعني تمتع الجميع به، فاللوازم الأساسي لتحقيق العدالة والمساواة يجب البحث عنه بعيدا عن القانون النظري مهما كان براقا فالتجارب العالمية في البلدان التي تنص قوانينها على أوسع الحقوق بينت دون غموض أن أقلية فقط تستمتع بهذه الحقوق وأنها تسرف في إهمال حقوق الآخرين بل تتحايل على كل قراءة تريد الحد من شراهة الأقوياء لصالح توازن يحرر الضعفاء من قيود دور المستهلكين المستلبين الذين بقدر ما يفقروا عقولهم ووعيهم وحريرتهم يغنون جيوب من يخططون لعمر أطول لزمن الرداءة؟ واللاإنسانية والمال الذي يعوم الجميع في عبادة الأهواء.

من الناحية النظرية: كان لكل فرد الحق في حرية التعبير بيد أنه لم يكن في مقدور أي فرد أن يمارسها على قدم المساواة فأصبحت مشكلات الاتصال ذات صبغة سياسية اقتصادية اجتماعية متزايدة وقد عرضت تباعا في صورة مشكلات تتعلق بحرية الصحافة وحرية تداول المعلومات والحق في الحصول على المعلومات، إن هناك تحرك نحو التركيز ارتباطا بالمتطلبات المالية للتقدم التكنولوجي فانخفض عدد من يقومون بث الرسائل وقد عملت السلطة على تدعيم من ظلوا يعملون في مجال بث الرسائل⁽⁷⁰⁾.

تحليل أثر وسائل الاتصال التي تعمل دون مراقبة يتخذ اتجاهين:

- اتجاه يدين وسائل الاتصال دون تردد.

- اتجاه يرى أنها بريئة كلية.



د. شافية صديق

وكل اتجاه يسوق أدلته وشواهد من الواقع ومن فلسفة الحريات والمسؤولية لكن الباحثين منذ بداية هذا الجدل بقدر ما انقسموا بقدر ما يمكن قراءة جدلهم ذلك على كونه تعبير كما يحمله كل واحد من اختيارات أساسية في الحياة.

جون ميلتون (1608-1674) نادى بحرية الطبع من غير إذن مسبق وبيّن في مراجعته عام 1644 للدفاع عن هذا المبدأ، إن الوسيلة في حد ذاتها بريئة فالكتب ليست الباب الوحيد الذي يمكن أن يدخل منه الفساد فأبواب الفساد كبيرة جدا ولا يمكن منطقيا غلقها جميعا⁽⁷¹⁾.

ويقول برتراندرسل (1872-1970) ولعل من المفيد أن نشير إلى أن اختراع الطباعة لن يكون نعمة مؤكدة ما لم تصحبه ضمانات لحرية المناقشة ذلك لأن الزيف يمكن طبعه بنفس السهولة التي تطبع بها الحقيقة ويمكن أن ينتشر بنفس القدر من اليسر ولن يفيد الإنسان كثيرا من القدرة على القراءة لو كان من المحتم عليه أن يقبل المادة المطروحة أمامه بلا مناقشة، فالتداول الواسع للكلمة المطبوعة لا يساعد على تقدم البحث العلمي إلا حيث تتوافر حرية الكلام والنقد وبغير هذه الحرية يكون الأفضل لنا أن نظل أميين⁽⁷²⁾.

وينبه برتراندراسل إلى أن التحدي أصبح أكبر مع تطور وسائل الاتصال وتنوعها وقدرتها التي يمكن أن تستخدم ضد الإنسان، الطباعة لم تعد هي الوسيط القوي الوحيد للاتصال والإعلام الجماهيري لذلك ازدادت أهمية ممارسة هذه اليقظة الدائمة التي بدونها تبدأ الحرية بأهم معانيها في الاختفاء⁽⁷³⁾.



وهم الاتصال الدولي الحر:

الاتصال عملية معقدة إنسانية لا تقوم في فراغ، لذلك يحرص الباحثون الجادون على عدم القفز على هذه الحقيقة، وتجاوز الشعارات البراقة التي تجعل الاتصال خارج الخصوصيات المكانية والزمانية مثل أن العالم "قرية صغيرة" فهل يتساوى في فهم هذا الشعار الذين يموتون جوعا وخوفا في الحروب الأهلية في إفريقيا وأولئك الذين يصنعون مصير العالم الاقتصادي في المؤسسات في الولايات المتحدة، وهل يفرح الفقير في إفريقيا وآسيا بآخر التطورات التقنية في عالم الاتصال التي تتنافس على تحسينها اليابان وكوريا والولايات المتحدة وألمانيا وغيرها من الدول الفاعلة هذه التطورات التي تخدم في جانب كبير منها شراة الغرب في السيطرة؟

ورغم أن القضايا الهامة في العالم والمطروحة على المنظمات العالمية لم تستحث البعد الإنساني في البشر بقدر أيقظت وورمت البعد الأناني رغم خطورة هذه القضايا على ملايين البشر كالمجاعة والمديونية والنزاعات المسلحة والتلوث وغيرها: "...في طرح هذه القضايا بين دول شتى من العالم تتضح الخلفية الفكرية التي يدافع عنها كل طرف مهما كان الموضوع المطروح"⁽⁷⁴⁾.

مجال الاتصال جلب لحيويته جشع الراغبين في السيطرة والاعتناء ومثلما انقسمت المجتمعات من الداخل إلى مسيطرين ومنساقين انقسمت الشعوب والدول إلى نفس الفئتين والرغبة كانت واحدة.



د. شافية صديق

يلاحظ تطور هائل في إمكانيات الإرسال عن بعد للإشارات والرموز الحاملة للرسائل المكتوبة والسمعية البصرية ولكن هناك أيضا احتكار ممارس من بعض الدول على وسائل الاتصال عن بعد والموجات الهرتزية والراديو والتلفزة، والاحتكار هذا لا مبرر له إلا رغبة الإنسان أي أن عملية الاحتكار مقصودة⁽⁷⁵⁾.

رغم أن الإنسان استطاع عن طريق تحسين تقنيات الاتصال الوصول إلى نتائج مذهلة في تصغير حجم الكرة الأرضية إلى أن حافزه هو الذي حدد أي لون يعطيه لتلك المساحة الإنسانية، وتقلص المسافات لم يقرب نفسيا بين الشعوب بل زاد في إبراز الفوارق واستفحال الأوضاع وبالتالي خلق المركبات وشحن الضغائن ولقد كتب "ديفيد هولندن" الكاتب البريطاني قبل اغتياله.

وسائل الإعلام الحديثة لم تساعد حتى الآن على إقرار التفاهم بين الشعوب بل زادت في تعميق سوء الفهم والتباعد الفكري⁽⁷⁶⁾.

أسئلة مفترضة:

أ- لماذا لم يتم الحديث عن حرية الاتصال ضمن موجة الحديث عن العولمة؟

ب- لماذا لم يتم التطرق للانترنت كأحدث وسائل الاتصال؟

الإجابة بسيطة:

أ- العولمة ليست ظاهرة جديدة، وحتى عندما كان العالم مقسما إلى معسكرين كانت الولايات المتحدة تسيطر على أكثر من 80% من الإعلام في العالم.



من حرية الاتصال إلى تحرير الفطرة

ب- الانترنت ليس منتشرا في العالم الثالث بالقدر الذي يمثل بعدا أساسيا في الخريطة الاتصالية ففي بلد يعد امتلاك الهاتف انتصارا عظيما يصبح الحديث فيه عن الانترنت من قبل الترف إضافة إلى أن الانترنت وسيلة اتصال متطورة تحمل فلسفة مخترعيها ومستعمليها.

ولا بد من تحليل هذه الوسيلة بعيدا عن الفكر الأسطوري المضخم والشعارات الاشهارية فالتلفزة مثلا جهاز دخل العالم منذ أربعينيات القرن الماضي وانتشاره في الجزائر يعد انتشارا واسعا ومتقدما ولكن ماذا حقق التلفزيون من تنمية وثقيف وفتح على العالم ما هي البرامج التي تحاصر المشاهدين وتصنع خلفياتهم خصوصا في مجتمع شبه أمي وفاقد تقريبا لتقاليد المطالعة الجادة.

الهوامش

- 1- ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد). الأخلاق والسير في مداواة النفوس. دار البعث، قسنطينة. 1400هـ، 1982. ص. 53
- 2-ESCAPIT(ROBERT):L'ECRIT ET LA COMMUNICATION COL: Que. Sais-je puf, France (2). 1984, p114.
- 3- شيللر (هريوت). المتلاعبون بالعقول، ترجمة رضوان (عبد السلام)، سلسلة عالم المعرفة. الكويت، 1982، بتصرف ص. 5
- 4- ن، م، س. ص 7 بتصرف.
- 5- ن، م، س. ص 101 بتصرف.
- 6- ن، م، س. ص 17 وص 82 وص 93 بتصرف.
- 7- بتصرف شديد: مائدة مستديرة على القناة الفضائية المصرية. 08 جانفي 2001. ولقاءان في حصة "بدون رقابة" على نفس القناة. بتصرف شديد ومع التحفظ من المواقف الغربية للوزير نفسه إزاء قضايا أخرى تدخل في مجال حماية المجتمع وأصالته.



د. شافية صديق

- 8- المصمودي مصطفى. النظام الإعلامي الدولي الجديد. سلسلة عالم المعرفة. الكويت، 1985، ص 122 بتصرف.
- 9- لاحظ الشكل الكاريكاتوري لحرية الإسماع في حديقة "الهديد برك" بلندن حيث يمكن للداعي أن يقف لساعات طويلة في ركن من الحديقة يقول ما يحلو له بالطريقة التي يريد لا رقيب، لا عقاب ولكن ماذا يعني صوت ضعيف في ركن من حديقة عامة أمام الإمكانات الكبرى التي يملكها صناع وسائسي الرأي العام.
- 10- المصمودي مصطفى. النظام الإعلامي الدولي الجديد. م، م، س. ص 123 بتصرف.
- 11- ن، م، ص 124 بتصرف.
- ورغم ذلك هناك نقائص عديدة سجلها بعض الباحثين في التقرير كما أنه لم يحز موافقة الكثير من القائمين على الاتصال الدولي.
- 12- رواه أحمد والنسائي والحاكم.
- 13- الغزالي محمد. فن الذكر والدعاء منذ خاتم الأنبياء. دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة، الجزائر. ص 47.
- 14- شريعتي علي. الدعاء ترجمة علي (سعيد)، مؤسسة حسينية إرشاد. طهران إيران. 1415 هـ. الطبعة الثانية، ص33-34 بتصرف.
- 15- ن، م، س، ص 20 بتصرف.
- 16- ن، م، س، ص 18 بتصرف.
- 17- على سبيل المثال: كم نسبة عدد الذين يتابعون الأشرطة التلفزيونية العلمية المتخصصة والذين ينتقون المواد الدرامية بعناية إلى نسبة الذين يلهثمون المواد السهلة التي ترتخي لها العقول وتسقط أمامها المناعة الوجدانية.
- 18- أبوزيد فاروق. فن الكتابة الصحفية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر. 1986. ص 6 بتصرف.
- 19- البيومي محمد أحمد. علم الاجتماع الديني، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية مصر 1981 ص 51.
- 20- ديتير (ملفين ل) وروكيش (ساندرا جول). نظريات وسائل الإعلام. ترجمة. عبد الرؤوف كمال. ص124 بتصرف.
- 21- هوريو (اندريه). القانون الدستوري والمؤسسات السياسية. ترجمه مقعد (علي) وحداد (شفيق). الدار الأهلية للنشر والتوزيع. بيروت لبنان، 1977. الطبعة الثانية. ص 50-55 بتصرف.
- 22- BALLE(Francis):Institutions et Publics Des moynes d'information et Monte chrestien, Paris,(France, 1973 P 191
- 23- بحوث ومحاضرات في إطار تدريس مقياس. الفلسفة الغربية الحديثة والمعاصرة.



من حرية الاتصال إلى تحرر الفطرة

24- طلبة (قطب محمد قطب). الإسلام وحقوق الإنسان، دراسة مقارنة. دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، 1396 هـ 1976 م. الطبعة الأولى. ص 192.

25- ستشيجنسكا (برجينا غيانة). تاريخ الدولة الإسلامية وتشريعها. المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، لبنان د.ت. ص 6 بتصرف.

26- راجع

MARCUSE(Herbert):l'homme unidimensionnel traduit de l'anglais par

wittig (m) . MARCUSE (H) Ed. Minuit, Paris, France 1966

الصفحات 36-37 . وص 110-129

27- في حوار مع مجلة الفكر العربي المعاصر. ملف النبوة. العدد 4. السنة 1986. ص 24 والملاحظ أن الكاتب لم يتبرأ من العدمية رغم ذلك.

28- د. كامل فؤاد. مدخل إلى فلسفة الدين ودراسات أخرى. الهيئة المصرية العامة للكتاب في دراسة خاصة حول كارل ياسبرز. ص 7. القاهرة. مصر. 1984.

29- في كتابة: "ملاحظات نحو تعريف الثقافة"، ترجمة عياد (شكري). دار النهضة العربية، القاهرة، مصر، ص 145، مع ملاحظة أن نيشه هو الذي نبذ الأخلاق المسيحية وأعلن "موت الإله" وانعدام أية ضمانات لتعقل العالم، وفولتير كان يعادي الكنيسة وله فكر متحرر من القيم الدينية.

30- طبلية (قطب محمد قطب). الإسلام وحقوق الإنسان. م، م، س. ص 126.

31- تقرير "شون ماكبرايد" ترجمة جماعية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. 1981. ص 63 العنوان التفصيلي للتقرير. أصوات متعددة وعالم واحد. الاتصال والمجتمع. المجتمع اليوم وغدا، اللجنة الدولية لدراسة مشكلات الاتصال.

32- سميع (صالح حسن). أزمة الحرية السياسية في الوطن العربي. دراسة علمية موثقة. دار الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، مصر. 1988. ص 47.

33- في كتابة: معنى الديمقراطية. ترجمة عزيز (جورج). سلسلة المكتبة السياسية، دار الكرنك. بيروت، لبنان. د.ت. ص 73.

34- طبلية (قطب محمد قطب). الإسلام وحقوق الإنسان. م، م، س. ص 217 بتصرف.

35- هوريو (اندرية). القانون الدستوري. م، م، س. ص 174 بتصرف و ص 168 بتصرف.

36- ملحم (حسن). محاضرات. م، م، س. ص 62 بتصرف.



- 37- ن، م، س. ص 63 بتصرف.
- 38- الصدر (محمد باقر). المدرسة القرآنية السنن التاريخية في القرآن إعادة صياغة للعبارة وترتيب الأفكار. شمس الدين (محمد جعفر). دار المعارف، بيروت، لبنان، 1409هـ. 1989م. ص. 162
- 39- TERROU(Fernand):l'information de la p3-6.Col:Que-Sais-je, revue ET mise à jour par Albert Ed, puf, Paris, France, 1983 (Pierre).
- 40- ن، م، س.
- 41- Voyenne(bernard):L'information aujourd'hui Ed: Armand colin Paris, France, 1979
- 42- رشتي (جيهان أحمد). نظم الاتصال، دار الفكر العرب.ي القاهرة، مصر، 1972. ط1. ص. 124
- 43- exarpit (robert):L'ecrit et la communication col:que sais-je. ed puf. Paris, France.1984. 3éme edition. p115.
- 44- رشتي. جيهان أحمد. الأسس العلمية لنظريات الإعلام، دار الفكر العربي. القاهرة، مصر. 1978. ص 59 بتصرف.
- 45- الشبيلي (عبد الرحمان صالح). نحو إعلام أفضل، مطبعة السفير، الرياض، السعودية 1413هـ/1992م. ص 160 بتصرف.
- 46- برفوف (أ. ب). الصحافة الاشتراكية. ترجمة أديب خضور، دار ابن خلدون. بيروت، لبنان. دت. ص 13-14 بتصرف.
- 47- رشتي (جيهان أحمد). الأسس العلمية. م، م، س. ص 49 بتصرف.
- 48- TERROU(Ferland):l' information.op.cit.p3-6.
- 49- رشتي (جيهان أحمد). الأسس العلمية. م، م، س، ص 56 بتصرف. واحداً (زهير). المدخل لعلوم الإعلام والاتصال. ديوان المطبوعات الجامعية والمؤسسة الوطنية للكتاب. 1992. ص 9 بتصرف.
- 50- رشتي (جيهان أحمد). الأسس العلمية. م.م.س. ص 56 بتصرف.
- 51- ن، م، س بتصرف.
- 52- ن، م، س بتصرف.
- 53- عشوي (مصطفى). في كتاب الاتصال. تأليف جماعي بإشراف عزي (عبد الرحمان). د.م.ج. الجزائر. 1992. ص. 27
- 54- ذبيان (سامي). الصحافة اليومية والإعلام، دار المسيرة، بيروت، لبنان. 1987. ص 131 بتصرف.



من حرية الاتصال إلى تحرير الفطرة

- 55- رشتي (جيهان أحمد). الإعلام ونظرياته في العصر الحديث، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر. 1971، ص. 94
- 56- تقرير اليونسكو 1975. م، م، س. ص. 54
- 57- لاحظ تحليل أشمل في هوريو (أندرية). القانون الدستوري. م، م، س. ص. 48 بتصرف.
- رشتي (جيهان أحمد). نظم الإتصال، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر. 1972. ص. 19 بتصرف. شرام (ولبر). أجهزة الإعلام والتنمية الوطنية. دور الإعلام في البلدان النامية. ترجمة فتحي (محمد)، وزارة الثقافة المصرية، القاهرة، مصر. 1970.
- 58- هوريو (أندرية). القانون الدستوري. م، م، س. ص. 44 بتصرف.
- 59- Voyenne(bernard):l'information aujourd'hui.op,cit. p 46-47-51-53
- 60- مرشو (غريفوار منصور). مقدمات الإستيعاب. الشرق موجود بغيره بذاته المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية. 1416هـ-1996. ص. 67 بتصرف.
- 61- Mcluhan(marshall):pour comprendre les media:
les prolongements technologiques de l'homme, traduit de l'anglais par
- (Jean) ed: mare, seul, paris, france, 1976, 2emme edition
- 62- Voyenne (Bernard): l'information. op, cit. p 45.
- 63- ديصير (ملفين) وروكيتش (سانداجول). نظريات وسائل الإعلام. ترجمة عبد الرؤوف كمال. الدار الدولية للنشر والتوزيع. القاهرة. مصر. 1992. ص. 36 بتصرف.
- 64- BALL(Francis) Medias et sociétés.OP.CIT.P 242.
- 65- ن، م، س. ص. 235.
- 66- ESCARPIT(Robert):l'écrit et la communication.op.cit. p116 -120.
- لاحظ مثلاً أزمة المطبعة والإشهار في الصحافة المكتوبة الجزائرية "المستقلة".
- 67- BALL(Francis): Medias et sociétés.OP.CIT. P 235.
- 68- ن، م، س. ص. 213 بتصرف.
- 69- تقرير شون ما كبرايد. م، م، س. ص. 61 بتصرف.
- 70- ن، م، س. ص. 63-64 بتصرف.
- 71- BALL(Francis): Medias et sociétés.OP.CIT. P 233.



د. شافية صديق

72- رسل (برتراند). حكمة الغرب. ج2. الفلسفة الحديثة والمعاصرة. ترجمة زكرياء (فؤاد). سلسلة عالم المعرفة. الكويت. 1404 هـ - 1983 م. ص. 22

73- ن، م، س بتصرف.

74- المصمودي (مصطفى). النظام الإعلامي الجديد. سلسلة عالم المعرفة. الكويت. 1985. ص. 16

75- BALL(Francis): Medias et sociétés.OP.CIT. P 234

76- المصمودي (مصطفى). النظام الإعلامي. م، م، س. ص 333-334 بتصرف.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى
بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾

"سورة الشورى، الآية 38"